صورة المرأة في الأدب الرهباني
خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين

أ. د. عبد العزيز محمد رمضان(*)

في دراسته الرائدة "الجسد والمجتمع: الرجال والنساء والإنكار الجنسي في المسيحية المبكرة"، اتجه بيتر براونPeter Brown إلي الاعتقاد في أن المواقف المسيحية المبكرة من النساء طغى عليها طابع "الكراهية" و"العداء"، وراح يعلق على موقف الرهبانية المبكرة منهن بقوله: "لا شك في أن كثيرا من القصص المروعة التي ذاعت في الدوائر الديرية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين ستصدم المعاصرين عند سماعها، خاصة وأنها أُنتقيت من ركام النفايات الممتد في عمق التاريخ لكراهية النساء في الشرق الأدنى"[1] وذات الاعتقاد تبنته أيضا أبريل ديكونيك April Deconick عند تناولها لرؤية آباء الكنيسة الأوائل للمرأة، وعبرت عنه في العنوان الذي اختارته لدراستها باستحداثها مصطلح "العداء المقدس للمرأة".[2] وتعبر هاتان الدراستان بوضوح عن اتجاه ساد عدد غير قليل من الدراسات الحديثة مؤداه أن المصادر المسيحية المبكرة لا تتضح إلا بما هو كاره ومعادى للمرأة، وأن مصدر هذه العداء يكمن في المفاهيم التي سيطرت على العقلية المسيحية الذكورية آنذاك، والتي جعلت من طبيعة المرأة البيولوجية مصدرا للإغواء الجسدى وآداة طيعة في يد الشيطان في حربه الشعواء على المسيحية بكنيستها ونظامها الرهباني.

(*) أستاذ آداب عين شمس .

وفي الوقت الذي اعتقد هذا الفريق من الباحثين في ثبات وجمود المواقف المسيحية المبكرة من المرأة، اتجه فريق أخر إلي تناول الوجه الآخر من العملة، وأعنى هنا دراسة دور المرأة في تطور الحركة الرهبانية الباكرة، كناسكة وراهبة، واتجه بعضهم إلي حد إمكانية الحديث عن ناسكات قديسات اعتزلن العالم إلي الصحراء، أو كما أطلقوا عليهن "أمهات الصحراء" mothers of the desert كمرادف أنثوي لـــ "آباء الصحراء".[٣] إلا أن تناقض صورة "القداسة" التي حاول هذا الفريق استخلاصها من الأدب الرهباني مع الصورة السلبية التي يزخر بها دفع بعضهم إلي الاعتراف بأن "دور المرأة في الأدب الرهباني من الموضوعات المهمة والمعقدة"،[٤] بينما اتجه البعض الآخر إلي محاولة تفسير هذا التناقض بالتشكيك في واقعية الصورة السلبية التي حاول كتاب الأدب الرهباني المبكر رسمها بدعوى أنها لا تعبر إلا عن رؤية ذكورية لها أيديولوجيتها الخاصة. ففي سياق تناولها لناسكات الصحراء، ترى ريبيكا كراويس Rebecca Krawiecأن "هناك بالطبع اشكالية منهجية حول اعتبار قصص وأقوال الأدب الرهباني التي نُسبت إلي النساء تمثل وجهة النظر الأنثوية، خاصة وأننا غير متأكدين من مؤلفى هذه الأقوال. ولأننا لا نستطيع أن نحمل النساء مسئولية كونهن نساء،علينا فحص أقوال هؤلاء الكتاب، سواء كانوا ذكورا أم إناثا، لمحاولة فهم ما حاول هؤلاء الكتاب عكسه عن النساء".[٥] كذلك؛ دعت إليزابيث كلارك Elizabeth Clark الباحثين إلي الأخذ في الاعتبار منظور أن مصادرنا لا تقدم لنا نساء حقيقيات من الماضي، وإنما تخيلات كتاب ذكور أو توظيفات بلاغية لمقولات نساء، أو بعبارة أخرى؛ لا تقدم لنا أكثر من "صور" أدبية لـــ "نساء حقيقيات".[٦]

وإنطلاقا من رؤية كراويس وكلارك لمنهجية التعامل مع نصوص الأدب الرهباني الباكر، وأهمية قراءته بمصطلحاته ومفاهيمه الخاصة به، تهدف

الدراسة الراهنة إلي محاولة فهم ما سعى مؤلفو الأدب الرهباني الباكر إلي عكسه عن النساء بوصفهن مصدر الإغواء الجسدي وآداة شيطانية مثلت خطرا يهدد حياة التنسك والرهبانية، والأهم من ذلك كيفية معالجة هؤلاء الكتاب لتناقض هذه الصورة السلبية مع نماذج نسائية حقيقية استطعن تقديم نموذجا مثاليا في الحياة الرهبانية بل وبلوغ مرتبة القداسة ذاتها.

ولعل أفضل نقطة يمكن البدء بها هي مقاربة أحد المفاهيم النسكية الأساسية التي أثرت بشكل أساسي على صورة المرأة في الأدب الرهباني المبكر، وأعنى هنا مفهوم "الحرب المقدسة" مع الشيطان. فالمطالع لنصوص هذا الأدبي بلغ بسهولة مفهوم مؤداه أن عالم الصحراء في الفكر الرهباني لم يكن مجرد عالما ملائما لسكنى القديسين والنساك والرهبان، بل هو أيضا ساحة حرب روحية حقيقية تصارع فيها "جند الرب" مع الشيطان وأعوانه من الأرواح النجسة، وفي هذه الحرب استخدم الأخيرون شتى أنواع الأسلحة والتكتيكات لإغواء الرهبان وجرهم إلي الخطيئة كمقدمة أساسية لتحقيق هدفهم الأسمى بانتزاع هؤلاء الرهبان من عالم الفضيلة والتكريس للمسيح وإعادتهم ثانية إلي العالم الدنيوي.[٧] وفي هذه الحرب، صور لنا الأدب الرهباني "الروح الشزيرة للزنا"، أو كما أطلق عليها في أغلب الأحيان "شيطان الشهوة"، كأحد أهم الجنود الفاعلين في "جيش الشيطان" وأكثرهم خطرا على الحياة الرهبانية.[٨]

وأقدم النماذج الباكرة التي صاغت مفهوم حرب الراهب مع "شيطان الشهوة" نصادفها في سيرة الأنبا أنطونيوس. فوفقا لأثناسيوس لم يأت صراع الأنبا أنطونيوس -في شبابه- مع "شيطان الشهوة" إلا بعد سلسلة طويلة من الإغواءات – أو بالأحرى "المحن"- حاول من خلالها الشيطان جره إلي الخطيئة ومن ثم إبعاده عن "عالم الرب". فقد بدأ الشيطان حربه مع أنطونيوس بأسلحة "الفكر"[٩]، وعندما فشل تحول إلي مهاجمة الجسد بتوظيف "شيطان

الشهوة" ، الذي تجسد له في البداية في هيئة امرأة جميلة، وعندما فشل في جره إلي الخطيئة ظهر له كصبي أسود.[١٠]

وبقدر تنوع أسلحة الشيطان في حربه ضد أنطونيوس ما بين أسلحة "الفكر" وأسلحة "الجسد"، كان على الأخير – كما يصف لنا أثناسيوس– أن يستخدم أساليب مقاومة "فكرية" و"بدنية": ففي الوقت الذي واجه "تشتت الفكر" و "أفكار الفحش" بالصلاة الدائمة، استجاب لـــ "دغدغة" الجسد بـــ "الإيمان والصوم"، وحارب الصور الذهنية الخادعة باقتباس آيات من الكتاب المقدس. ومثل هذه الوسائل –كما يروى أثناسيوس– أثبتت فاعليتها بالقدر الذي جعل أنطونيوس نفسه يدرجها كتيكتيكات على الراهب انتهاجها في صراعه مع الشيطان: فعلى الراهب الصوم لإضعاف رغبته الجسدية، ومواجهة الأفكار الشيطانية بأفكار أكثر نقاءً، وتوظيف الصلوات القصيرة وآيات الكتاب المقدس لطرد الشياطين. لقد راح أنطونيوس يشجع الرهبان على الانخراط في العمل النسكي والابتعاد عن الصراع مع الشياطين، ونصحهم بشكل متكرر بعدم "خسارة القلب" وعدم "التهاون"، كما راح يذكرهم بأن حرب "الأفكار" تبدأ بتذكير الراهب بحياته الدنيوية، كالأملاك التى هجرها أو بتذكر نشوة الجسد، ومن ثم أكد على أن مهمة التنسك تكمن في الحفاظ على النفس كما خُلقت دون إفساد أو تشويه، فالراهب لا يحتاج شيئا من "الخارج" لتجنب مثل هذه الأفكار، بل في استطاعته الاحتفاظ بحالته الطبيعية لكون المهمة تكمن في "الداخل".[١١]

ويمكن القول بأن حرب أنطونيوس مع الشيطان أثرت تأثيرا ملحوظا على الأدب الرهباني اللاحق في تصوره لاستراتيجية حرب شيطان الشهوة. ففي هذا الأدب غالبا ما يبدأ الشيطان هجومه بـــ "الأفكار"، ثم يتحول إلي "الجسد"، ثم يتبدى في هيئة مرئية كنوع من الملاذ الأخير.[١٢] ولنبدأ بقصة –تظهر لنا مدى هذا التأثير الأنطوني– رواها لنا بالاديوس Palladius، مؤلف "التاريخ اللاوسي"

Historia Lausiaca، الذي تعرض هو نفسه خلال فترة تجوله بين نساك صحارى مصر (حوالى ٣٨٨-٣٩٩م) لمقاساة هذا النوع من الحرب، وكما جاء على لسانه "لقد طغى علىّ فكر محبة النساء، في أفكاري وفي أحلامي، وكنت على وشك ترك الصحراء، مطرودا من هذا الوجع".[١٣] وعندما يأس لجأ إلي باخون Pachon في صحراء الإسقيط Scetis، فقال الأخير له: "لا تدع هذا الأمر يزعجك لأنك لا تقاسي ذلك بسبب التهاون، فالمكان يشهد لصالحك لأمرين: نقص الضروريات، وعدم وجود فرصة لمقابلة النساء. فالحرب ضد الشيطان ثلاثة: فمرة يهاجمنا الجسد بشهواته، ومرة أخر تهاجمنا الأوجاع بالفكر، ومرة ثالثة يهاجمنا الشيطان بخبثه". وعند هذه النقطة راح باخون يروي لبلاديوس قصة صراعه الطويل مع شيطان الشهوة، على مدى اثنتى عشرة سنة، وكيف أن الشيطان بدأ بـــ "الأفكار"[١٤] ثم بوجع "الجسد"[١٥] وأخيرا بتجسده في هيئة "جارية سوداء كنت قد رأيتها ذات مرة في شبابي وهي تجمع بوصاً".[١٦]

والقارئ لمثل هذه القصة قد يلحظ بسهولة أنها تحمل رسالة تحذيرية من خطر المرأة على الحياة الرهبانية، فبالاديوس -من خلال باخون- أراد أن يحذر الراهب من أن مجرد التفكير في المرأة قد يدمر حياته الروحية ويدفعه إلي مغادرة الصحراء، وإن ألمح إلي أن "الأفكار" في حد ذاتها يمكن التغلب عليها طالما ظلت "لا توجد فرصة لمقابلة النساء" في الصحراء. وهذه الرسالة التحذيرية تصير أكثر وضوحا ومباشرة في مقاربة إيفاجريوس البونطي Evagrius of Pontus، صديق بالاديوس، الذي تعرض هو الآخر "لحرب الشهوة بصورة إمرأة"[١٧]، ورغم محاولته المقاومة، إلا أنه لم تكن لديه القدرة "إذ كان مقيدا بسلاسل العبودية".[١٨] وبعد أن ظل يقاسي سنوات طويلة لجأ إلي حياة الرهبانية في صحراء مصر لأربع عشرة سنة (حوالي ٣٩٩م أو ٤٠٠م)، راح يدون خلالها خلاصة خبرته من هذه التجربة.[١٩]

لقد أكد إفاجريوس على أن هجمات الشيطان على "الجسد" يأتى عقب هجومه عبر "الأفكار"، ولذلك راح يشدد على ضرورة ألا يتعرض الوافدون الجدد على الحياة الديرية لمؤثرات الرؤيا أو الحس، حتى لا تزعجهم حرب الشيطان فيعودوا إلي "العالم الدنيوي".[٢٠] وهنا نلاحظ أن إيفاجريوس رغم تأثره بأنطونيوس في تسلسل هجوم الشيطان على الراهب بـــ "الفكر" ثم "الجسد"، إلا أنه عكس تطورا أخر ميز الأدب الرهبانى اللاحق على أنطونيوس، وهو أن سلاح هجوم الشيطان على الجسد لم يعد قاصرا فقط على الصور الذهنية الخادعة التي يتجسد فيها "شيطان الشهوة"، بل امتد أيضا إلي توظيف نساء حقيقيات من "العالم الدنيوي". أو بعبارة أخرى لم يعد "الداخل" و"الخارج" قاصرا فقط على رؤية أنطونيوس في كون نجاح الراهب في حربه يكمن في داخله "نفسه" دون الحاجة إلي خارجه "الجماعة الديرية"، بل تطور المفهوم ليصير "الداخل" هو الجماعة الديرية ذاتها، بينما "الخارج" هو "العالم الدنيوي".

إن حرب "الجسد" كما تخيلها إيفاجريوس كانت أكثر من مجرد مواجهة مع شيطان مكرس الشهوة، بل هي –كما عرفها إيفاجريوس نفسه– "الحرب التي يقاسي فيها المرء لوعة الرغبة في تنويعة من الأجساد"[٢١]، إلا أنه على العكس من أنطونيوس –الذي قدم المرأة والفتى الأسود كأداة للإثارة الجسدية– قدم النساء –والنساء فقط– كأداة وحيدة للشيطان، أداة لا يستخدمها فقط كصور ذهنية أو تجسيدات مرئية في اليقظة أو الأحلام لغزو "عقل" الراهب ليربكه ويعوقه عن التفكير[٢٢]، بل لحث الراهب على الانتقال من "الداخل" لـــ "الخارج" بالذهاب إلي الأسواق أو الأماكن المزدحمة أو حتى إلي الاحتفالات الدينية الحاشدة، حيث يمكنه رؤية نساء حقيقيات.[٢٣] وهنا يبدأ عمل المرأة كسلاح لشيطان الشهوة: "إن النساء في البداية يتحدثن مع الراهب باحتشام وخجل، لكنهن سرعان ما يرجفن أجفانهن، يعرين أعناقهن، حتى ينتهين بكامل

الجسد".... وكل ذلك "شرك يشدك إلى الموت وشباك معقدة تسحبك إلي الدمار".[٢٤]

ويستطيع المرء بسهولة ملاحظة نقاط التشابه الواضحة بين بالاديوس وإفاجريوس، فكل منهما أراد أن يقدم لرهبانه رسالة تحذيرية من خطر المرأة على الحياة الرهبانية. وفي الوقت الذي حملت هذه الرسالة تأكيدا على التمييز بين عالمي الجماعة الديرية في الصحراء "الداخل" والعالم "الخارج"، فقد هدفت أيضا إلي تحقيق الفصل الكامل بين هذين العالمين. وإذا كان بالاديوس –في قصته عن ماخون– قد شدد على أن مجرد تذكر الراهب لـــ "للمرأة" أمر يمكن علاجه طالما ظل قابعا في الصحراء حيثما "لا توجد فرصة لمقابلة النساء"، فقد راح إيفاجريوس يشرح هذا المفهوم بقوله إن "الصحراء تتيح الفرار من لهيب النيران دون أذى، لأن الشخص العفيف الذي ينأى بنفسه عن عالم النساء لن يحترق بشهوة الجسد، حتى وإن تذكر النار، فمجرد التذكر لا يحرق العقل أو الفكر، والرغبة لن تقوى طالما ظل موطن الداء غير حاضرا".[٢٥] أما في "العالم"، حيث النساء، فإن "رؤية المرأة سهم مسموم يصيب الروح ويثير الغريزة"[٢٦].

وفي هذا السياق يمكن اقتباس مقولة بيتر براون بأن مثل هذه القصص والأقاويل المنتشرة في الأدب الرهبانى كانت تهدف في المقام الأول إلي "تكريس حد فاصل بين الصحراء والعالم في ثقافة ميزت بين العالم الدنيوي وجماعات تنسكية شعارها سمو التبتل بوصفه نمط الحياة المسيحي المثالى"، وأن "الخوف من النساء كان بمثابة عامل فصل أساسي أبقى "العالم" و "الصحراء" على مسافة أمنة كل من الأخر".[٢٧] ورغم وجاهة مقولة براون الأخيرة، إلا أن التماثل الواضح في رسالة كل من بالاديوس وإيفاجريوس أمرا يشي بأن ثمة قلق ساد الدوائر الديرية أواخر القرن الرابع الميلادي من خطر

المرأة على عالم النساك والرهبان في الصحراء. وهذا في حد ذاته قد يثير بعض التساؤلات: إلي أي مدى كان هذا القلق حقيقيا؟ وما هي المبررات التي سوغته؟ أو بعبارة أخرى هل نجح "الخوف من النساء" عمليا -كما يتجه براون- كعامل فصل أساسي بين "العالم" والصحراء"؟

وللإجابة على هذه التساؤلات، يمكن البدء بقصة يرويها لنا بالاديوس عن القديس أرسانيوس -المترهبن في كانوب قرب الإسكندرية- الذي رفض مقابلة ميلانيا النبيلة -التي ارتحلت من روما خصيصا لرؤيته- رغم توسط البطريرك ثيوفيلوس لديه كي يلبي رجائها. ومع إصرار القديس فاجأته ميلانيا بينما كان خارج قلايته، ورجته أن يصلى من أجلها، فأجابها: "إنى أصلى كي يمحو الرب ذكراك من قلبي". وكان ذلك سببا في حزنها ومرضها، فزارها ثيوفيلوس، وعندما سألته عن سبب صد القديس لها، أجابها ثيوفيلوس: "ما قال القديس هذا إلا لأنك امرأة، ولأن العدو يحارب القديسين بالنساء".[٢٨]

ويكتظ الأدب الرهبانى بنصائح كثيرة ومتكررة تحذر الرهبان من الاتصال بنساء عالم "الخارج"، منها -على سبيل المثال- ما نقله بلاديوس في "أقوال الآباء"[٢٩] *Apophthegmata Patrum*: "لا تتعامل في الأمور الخاصة بأبناء العلمانيين، ولا تتحدث مع النساء"[٣٠]؛ و"لا تأكل من طبق واحد مع امرأة، وبذلك يمكنك الهرب من شيطان الزنا"[٣١]؛ و"من يتكلم مع امرأة يزني بها على الفور في قلبه"[٣٢]؛ و"لا تسمح لامرأة أن تقترب من قلايتك"[٣٣]؛ و"لا تنام في مكان به امرأة"[٣٤]. وأخيرا ثمة قصص أخرى تشي بـــ "الخوف من النساء" والقلق من خطرهن على عالم الرهبان والنساك في الصحراء. فعندما قال أحد الرهبان الطاعنين في السن (أنبا إبراهيم) لشيخه الأنبا سيصوي: "يا أبتاه لقد طعنت في السن، فدعنا نقترب قليلا من سكنى أبناء العالم، قال له الشيخ: "دعنا لا نذهب إلي حيث توجد النساء"، فقال له الراهب: "وما هو المكان الذي يخلو من النساء

سوى الصحراء"، فقال له الشيخ "إذن هيا بنا إلي الصحراء".[٣٥] وفي كتاب "تاريخ الرهبان" *Historia Monachorum* لمؤلفه المجهول، راح الأنبا يوحنا الليكوبولي ينصح تلاميذه قائلا: "يا أولادي ليس من صالحنا أن نسكن بكهوف قرب المناطق المأهولة، أو نتصل بالنساء، لأن مقابلة هذا النوع يعطى الفرصة لذكريات ليس من السهل محوها".[٣٦]

وفي بعض الأحيان؛ يعكس لنا الأدب الرهباني مواقف أكثر إفراطا في "الخوف" من المرأة، بلغت أحيانا حد تحذير الرهبان من رؤيتها في الأحلام وتحميلهم مسئولية ذلك.[٣٧] أو اتخاذ أقصى درجات الحيطة والحذر تجاه كل ما هو أنثوي. فالأنبا آمون، بينما كان في مهمة دعته إلي عبور النهر، رفض ركوب مركب كان به عدد من النساء، وعندما سأله الرهبان عن ذلك، أجاب: "حتى لا تثور الأفكار الشريرة في نفسي".[٣٨] وقيل أن الأنبا إسحق خرج فرأى آثار أقدام امرأة على الطريق، فأخفى معالمها قائلا: "لو رآها أحد الإخوة، قد يسقط بسببها".[٣٩] وثمة قصة تشي بأن الحذر والخوف من المرأة امتد إلي الخوف من أنثوية الأم البيولوجية ذاتها، وهي قصة ارتحال أحد الرهبان مع أمه العجوز "ولما أتيا إلي نهر، لم تستطع السيدة أن تعبره، فأخذ شالاً وربطه حول يديه كي لا يلمس جسدها، وحملها وعبر النهر"، وعندما سألته الأم عن سبب ذلك، أجاب: "إن جسد المرأة نار، ومن خلال جسدك قد تتولد ذكرى إمرأة أخرى".[٤٠] ويبلغ هذا الحذر ذروته في إحدى القصص ليشمل النساك والرهبان المتمتعين بدرجة من الحسن، ذلك عندما رفض الأنبا بَفنوتيوس Paphnutius إقامة الأنبا يوديمون Eudemon–وقتما كان شابا تبدو عليه علامات الحسن– في صحراء الأسقيط، قائلاً: "لن أسمح لوجه إمرأة أن يقيم في الأسقيط، فيثير حرب الشيطان ضد المقدسين".[٤١]

كذلك؛ مما يدعم وجود هذا القلق والخوف، أن بعض كتاب الأدب الرهباني خصصوا فصولا بأكملها تحت عنوان "عن الزنا" On Fornication (*porneia*)، ناقشوا فيها مفهوم حرب شيطان الشهوة والسبل المثلى لمقاومته والتغلب عليه.[٤٢] وفي هذه الفصول وغيرها من نصوص الأدب الرهباني نصادف قصصا كثيرة لآباء قديسين خاضوا لسنوات طوال مثل هذه الحرب القاسية، فالأنبا موسي الأسود وجد صعوبة بالغة في احتمالها.[٤٣] والأنبا آمون "عندما ثارت فيه الشهوة لم يرحم جسده، فحمى قطعة حديد بالنار ووضعها على أعضائه حتى تقيحت".[٤٤] أما باخون -المذكورة قصته قبلا- فقد كاد يسقط في الخطيئة بعد معركته القاسية مع شيطان الشهوة، وانتهى بوضع أفعى على أعضائه لتلدغه.[٤٥] وإيفاجريوس ذاته -كما أشرنا قبلا- دفعته معاناته الشديدة والطويلة خلال هذه الحرب إلي إمضاء الشتاء عاريا في بئر "حتى تجمد لحمه".[٤٦] وإذا كان هؤلاء الآباء وغيرهم -كما عكس الأدب الرهباني- قد وجدوا صعوبة بالغة في التغلب على شيطان الشهوة رغم ما حققوه من نموذج مثالي في حياة النسك، فإن ثمة قصص تحذيرية أخرى تشير إلي بعض الرهبان والنسك ممن سقطوا في الخطيئة فعلا. إذ ورد في كتاب "تاريخ الرهبان" لمؤلفه المجهول قصة راهب عاش في مغارة بالصحراء وبلغ درجة عالية من حياة النسك والفضائل، إلا أن الشيطان أغواه في صور إمرأة جميلة تائهة في الصحراء، وكان نتيجة سقوطه أن "يئس من خلاصه" وعاد إلي "العالم".[٤٧] ويزخر الأدب الرهباني بكثير من النماذج لنساك ورهبان سيطرت عليهم ذكرياتهم السابقة وولدت لديهم "شهوة حسية قوية" وجرفتهم "بأفكار شريرة نحو العالم".[٤٨]

ولعل معاناة مثل هؤلاء الأباء -وسقوط بعضهم- في حربهم مع شيطان الشهوة، رغم أن معاناتهم اقتصرت على "الأفكار" والتخيلات الذهنية فقط لأنهم

لم يغادروا "الصحراء"، أمرا يحمل رسالة تحذيرية من أن سقوط الرهبان – خاصة الشبان ممن لم يبلغوا بعد مرحلة متقدمة في الحياة الرهبانية– في الخطيئة أمرا ممكنا، خاصة إذا توافر وجود إمرأة حقيقية.[٤٩] ويبدو أن ظهور حالات كهذه كان مسوغا إضافيا وجيها للقلق والخوف من النساء، فالمطالع لقصص الأدب الرهبانى يلاحظ أن كثيرا من مواجهات الرهبان مع "شيطان الشهوة" ونسائه الحقيقيات، سواء نتج عنها معاشرة جسدية حقيقية أم لا، تحدث عندما يكون الراهب في مهمة داخل "العالم" أو جرته حيلة شيطانية للذهاب هناك، أو بعبارة أخرى –وبالمفاهيم الرهبانية– عندما يختلط العالمان، عالم الداخل "الصحراء" وعالم الخارج "العالم". الاختلاط الذي يفسد نقاء وصفاء من ينتمى إلى عالم "الداخل". وتكتظ "أقوال الآباء" بقصص عديدة لرهبان سقطوا – إما بممارسة الرذيلة أو بخلع عباءة الرهبانية والاتجاه إلي الزواج والحياة العلمانية– نتيجة هذا الاختلاط. أحد هؤلاء الرهبان –كما ورد في "الأقوال"– "كان مُنكرا لذاته، شديد النُسك في عبادته، وذات مرة قرر أن يتوجه إلي المدينة ليبيع عمل يديه ويشترى احتياجاته... ولما دخل المدينة وتجول في شوارعها، إذا بإمرأة نبيلة أغرته بمالها وجمالها، فخلع رداء الرهبنة وتزوجها".[٥٠] وثمة قصص أخرى لراهب سقط في الرذيلة أثناء ذهابه إلي السوق لبيع منتجاته هناك؛[٥١] ولراهب سقط مع إمرأة التقاها أثناء زيارته لإحدى القرى للقيام بعمل ما.[٥٢]

وتشير قصص الأدب الرهباني أيضا إلي أن مثل هذا الاختلاط بين "الصحراء" و"العالم" لم يكن يحدث فقط بانتقال الراهب إلي "العالم"، بل كان يحدث أحيانا باختراق النساء حدود عالم "الصحراء" ذاته. الأمر الذي يتعارض جزئيا مع مقولة بيتر براون بأن "الخوف من النساء" أقام حدا فاصلا بين "الصحراء" و"العالم"، وهي المقولة التي وجدت صدى عند ريبيكا كراويس

ودفعتها إلي القول: "لقد وفرت الصحراء في مصر مكانا يستطيع الرجال فيه التحرر من المرأة والصراع مع عاطفة الجسد"[٥٣]. ويبدو أن مثل هذا الرأى استند إلي بعض "أقوال آباء الصحراء" -كمقولتى باخون وسيصوي سالفتي الذكر- التي تخيلت "الصحراء" مكانا خاليا من النساء.[٥٤] إلا أن مثل هذه الأقوال وغيرها ربما تعبر عن رغبة رهبانية مثالية أو تصورا لنموذج لم يكن مكتملا على أرض الواقع. وإذا كان ديفيد براكي ينتقد مقولة سيصوي عن الصحراء المصرية كمكان "حيثما لا توجد النساء" بوصفها تخالف حقيقة إشارة بعض نصوص الأدب الرهباني -على قلتها- إلي عدد محدود من الناسكات اللاتي أقمن في الصحراء، وراح يعلق عليها بقوله: "لقد امتلأت الصحراء بأفكار عن النساء، وذكريات الرهبان عن زوجاتهم وأمهاتهم، ومحاكاة الشيطان لصورهن، حتى وإن زعم الرهبان أنفسهم بأن النساء بلحمهن ودمهن كن غائبات"[٥٥]-، إلا أن نموذج ناسكات الصحراء في حد ذاته -كما سيوضح البحث فيما بعد- لم يكن في العقلية الرهبانية أمرا مناقضا للمفهوم الراسخ فيها والقائل بأن الصحراء، وعالم الرهبانية بأسره، مجال نفوذ ذكوري.

وبأية حال؛ تشي قصص الأدب الرهباني بأن اختراق المرأة للصحراء لم يكن قاصرا على الناسكات، بل تجاوزه إلي ارتحال بعض نساء "العالم" إليها، إما لزيارة أقاربهن من النساك والرهبان الذكور أو طلبا لمساعدة أو سعيا وراء إرشادوعلاج روحى. وأيا كانت الأسباب التي دعت المرأة العلمانية إلي الظهور في الصحراء -والتي ناقشتها سوسانّا إيلم Susanna Elm قبلا-[٥٦]، فإن بعض هذه القصص يولد انطباعا بأن ظهورهن في الصحراوات النائية كان أمرا متكررا. فالقديس بَفنوتيوس Paphnutius، الذي "عاش في أقصى الصحراء في منطقة هيراكليوس"،[٥٧] صادف امرأة جميلة "يبدو عليها الاحترام تجول في الصحراء" هربا من مطاردة السلطات بسبب ديون أسرتها.[٥٨] وفي صحراء

الأسقيط اقتفت أرملة أثر مجموعة من الرهبان رغبة منها في مقابلة الأنبا مكاريوس لإنقاذها وأولادها من مصير العبودية الذي يتهددهم بعد وفاة زوجها دون الوفاء بمال استدانه من أحد الأشخاص.[٥٩] وثمة أم اشتاقت إلي رؤية أولادها الرهبان فاتجهت إلي قلاياتهم بعد أن انتظرت طويلا على طريق خروجهم الكنيسة.[٦٠]

وإذا كانت النماذج السابقة تقدم نساء ظهرن في الصحراء لاحتياجات معينة –غالبا ما عمل الآباء والرهبان على تلبيتها–، إلا أن الجانب الأكبر من قصص الأدب الرهباني غالبا ما تصور هذا الظهور مقترنا بحيلة شيطانية لجر النساك والرهبان إلي إقامة علاقات مشينة معهن كمقدمة لهدف الشيطان الأسمى بحث هؤلاء إلي مغادرة "الصحراء" إلي "العالم".[٦١] فثمة قصة لراهب "في الصحراء، كانت إحدى قريباته قد اهتدت إلي مكان إقامته، وبفعل الشيطان لحقت بقافلة من الجمال، إلي أن وصلت إلي قلاية القديس، ومكثت معه". وبعد أن أُفتضح أمر سقوطه معها لأحد الرهبان –عن طريق الشياطين التي راحت تصيح وهي فرحة "لقد أسقطنا الراهب في الخطيئة"– قرر أن يمضي إلي العالم.[٦٢] وهناك قصة لناسك أخر "عاش في الصحراء حياة نسكية صارمة، وكان مشهورا بين الآباء بأنه كان يُخرج الشياطين ويشفي المرضى. وذات مرة أثار الشيطان حرب الشهوة ضده...، فسقط مع إمرأة اعتادت أن تأتي إليه طلبا للمساعدة. وبعد سقوطه، يأس من خلاصه، وقرر الرجوع إلي العالم".[٦٣]

وإذا كانت أحداث القصص السابقة تنتهي غالبا –إن لم يكن دوما– بتوبة الناسك أو الراهب الخاطئ، ومن ثم عودته إلي طهارة ونقاوة حياته الأولى قبل السقوط في الرذيلة، فإن لا محدودية إتاحة هذه التوبة –وإن مثلت جزءً أساسيا من المعتقد المسيحي والمفاهيم الرهبانية– تشي برغبة ديرية حقيقية في ألا يقف هذا السقوط عائقا أمام استمرار حياة النسك والرهبانية في "الصحراء". لقد

حرص الأدب الرهباني على أن يجسد بشكل متكرر ما قد يترتب على سقوط الراهب من يأس في الخلاص، ومن ثم ترك الصحراء والعودة إلي العالم، بوصفة الهزيمة الأكثر فداحة للحياة الرهبانية والانتصار الأسمى للشيطان وأعوانه.[٦٤] وإذا كان ذلك كله مرتبطا بطبيعة الفكر الرهباني الذي أقام تضادا بين "الصحراء" و"العالم"، وكان شعاره الأسمى "الموت عن العالم"،[٦٥] فإنه يعكس أيضا قلقا من ظهور فئة الرهبان فشلت في تحقيق هذا النموذج وبدأت ترنو إلي ترك "الصحراء" والعودة ثانية إلي "العالم"، قلق يشي به كثير من قصص الأدب الرهباني،[٦٦] وتجسده "أقوال الآباء"، كمقولة أحد الآباء: "لم يغادر الآباء السابقين أماكنهم إلا لأسباب ثلاثة"، أولها "أن تُشن عليهم حرب الشهوة"[٦٧]؛ وسؤال الأنبا هيلاريون: "كيف لا ينزعج المرء وهو يرى بعض الرهبان يعودون إلي العالم؟!".[٦٨]

وعلى ذلك؛ يمكن القول بأنه من وجهة النظر الديرية كانت ثمة مبررات حقيقية -بعضها يتعلق بالأيديولوجية الرهبانية، وبعضها يرتبط بالممارسة والواقع العملي للحياة الرهبانية- لترويج صورة سلبية عن المرأة العلمانية، تردد صداها عبر صفحات نصوص الأدب الرهباني. وعند هذه النقطة قد تُثار بعض الإشكاليات، وهي: إذا كانت هذه النصوص قد عكست قلقا وخوفا، أو بعامة نظرة ما سلبية، للجماعة الرهبانية تجاه نساء "العالم" بوصفهن أداة لـ "شيطان الشهوة"، فهل امتدت هذه النظرة لتشمل كافة هؤلاء النساء؟ وإلي أى مدى تأثرت نساء "الصحراء" من الناسكات والراهبات بهذه الرؤية؟ .

يقدم لنا الأدب الرهباني في أحيان قليلة للغاية قصصا لنموذج مختلف من نساء "العالم" ممن استطعن بلوغ درجة من الصلاح، والاختلاف هنا يكمن في كونهن -من وجهة النظر الرهبانية- نجحن في إنكار رغبة الجسد وحققن مثالا عاليا من التبتل والعفة، رغم كونهن لم ينخرطن في أي نمط من أنماط الحياة

النسكية والرهبانية. وهو النموذج الذي يمكن أن نطلق عليه "الزوجات العذارى"، اللاتي عشن مع أزواجهن دون اتصال جسدي.[٦٩] وباستثناء ذلك؛ لا نصادف في الأدب الرهباني إلا قصص معدودة لنساء صالحات من "العالم". ففي "أقوال الآباء"؛ لا نجد إلا ثلاث قصص فقط عن: إمرأتين رفض زوجيهما رغبتهن في الانفصال والالتحاق بدير العذارى، لكنهن حققن -وهن في بيوتهن- درجة عالية من الحياة الروحية النقية؛[٧٠] وبغية تائبة تزوجها قاضي من أجل حياة فاضلة؛[٧١] وزوجة تاجر -مسجون بسبب ديونه- صانت نفسها ضد رغبات أحد النبلاء رغم إغرائه لها بسداد هذه الديون.[٧٢] كذلك؛ لا يسجل بالاديوس في "التاريخ اللاوسي" إلا ثلاث قصص فقط لهذا النوع من النساء: الجارية السكندرية الجميلة بوتامياينا Potamiaena التي فشل سيدها في إغوائها؛[٧٣] والعذراء السكندرية ذات العشرين ربيعا التي دفعها حسنها إلي "التواري عن الآخرين كي لا تكون سببا في سقوط أحدهم"، والتي أخفت الأنبا أثناسيوس في منزلها ست سنوات كاملة (٣٥٦-٣٦٢م) أثناء ملاحقة السلطات له؛[٧٤] والزوجة التي دفعت مقاومتها إغواء رجل إلي لجوئه لأحد السحرة، ومن ثم نجاحه في مسخها حصانا بسبب تقاعسها عن الذهاب إلي الكنيسة خمسة أسابيع متتالية.[٧٥]

وفيما عدا هذه الحالات؛ لم يصادف الباحث قصصا من هذا النوع في نصوص الأدب الرهباني الأخرى، الأمر الذي يشي بأن نسبة ظهور نساء "العالم" الصالحات في هذه النصوص لا يمكن مقارنتها بنسبة أقرانهن ممن دفعن النساك والرهبان إلي السقوط، أو غيرهن ممن اقترفن الخيانة في حق أزواجهن مع رجال من "العالم".[٧٦] كذلك؛ رغم أن هذه القصص -على قلتها- تقدم لنا نموذجا مختلفا من الزوجات والعذاري، إلا أن تركيز أغلب هذه القصص على كونهن لم يبلغن الصلاح إلا لإنكارهن عاطفة الجسد ومقاومتهن الإغواء -بل

والتواري عن أنظار الرجال حتى لا يكن سببا في سقوطهم- يدفع إلي تفسير مضامينها في إطار الرؤية الرهبانية العامة للمرأة بوصفها مصدرا للإغواء الجسدي، أو بعبارة أخرى يدفع إلي القول بأن هذه الرؤية كانت حاضرة في خلفية الصورة التي نسجها كتاب الأدب الرهباني عن نساء "العالم"، حتى عند تناولهم الصالحات منهن.

وعند هذه النقطة؛ قد يكون من الأفضل الانتقال إلي مناقشة صورة المرأة الناسكة أو الراهبة في الأدب الرهباني، ومدى تأثر هذه الصورة بالأيديولوجية الرهبانية تجاه نساء "العالم"، ورؤيتها للمرأة بوصفها مصدرا للأغواء. وبداية؛ علينا ملاحظة أن ظهور هذا النموذج في الأدب الرهباني لا يمكن بأي حال مقارنته بأقرانهن من النساك والرهبان الذكور، فثمة غياب تام للشخصيات النسائية في فهارس الآباء والرهبان المذكورة سيرهم بكتب "تاريخ الرهبان" للرهبان السبعة وروفينوس وجيروم؛ ومن بين مائة وعشرين من الآباء المذكورين في "أقوال الآباء" لا نجد سوى ثلاث ناسكات فقط، هن ثيودورا وسارة وسينكليتيكا Syncletica. ويظل كتاب "التاريخ اللاوسي" لبالاديوس هو الاستثناء الوحيد في هذا السياق، فرغم أن شخصيات النساك والرهبان الذكور طغت على محتواه (نحو ثلاث وخمسون شخصية)، إلا أن تناوله نحو ثماني عشر شخصية نسائية دفع وليم هارمليس William Harmless إلي حد وصفه بقوله: "لقد حاول بالاديوس أن يكون متوازنا، فراح يرسم بوعي خريطة تجارب النساء المتنوعة في القداسة"؛ وبقوله: "في النصوص الكلاسيكية نادرا ما كانت النساء محورا للرواية، الاستثناء نجده في التاريخ اللاوسي لبلاديوس. فوصفه لسعي النساء لبلوغ القداسة شكل جزءا من هدف روايته. إن بالاديوس يصر على أن اقتفاء طريق القداسة يتجاوز كل الحدود، حدود المفاهيم، وحدود

الطبقات، وحدود النوع. وهكذا راح يقدم هنا وهناك صورا تمثل مدى واسع من أنماط حياة النساء الناسكات".[٧٧]

ولعل المدخل المنطقي لفهم سبب اختلاف بالاديوس عن غيره من كتاب الأدب الرهباني الباكر –من حيث تناوله لعدد من الشخصيات النسائية– يكمن في محاولة معرفة هدف روايته، وكما يتضح من عنوان الكتاب ومما أوضحه بالاديوس نفسه في مقدمته، أن هذا العمل كُتب تلبية لرغبة لاوسوس Lausus كبير أمناء القصر الإمبراطوري.[٧٨] وبدون الخوض في تفاصيل الرسالة المطولة التي أرسلها بالاديوس إليه، فضلا عن مقدمة الكتاب التي يخاطبه فيها أيضا، يكفي الإشارة هنا إلي عبارة وردت في هذه المقدمة وتشي بأن تضمين شخصيات نسائية فيه جاء بناء على طلب لاوسوس نفسه: "لقد طلبت روايات الآباء القديسين، ذكوراً وإناثاً".[٧٩] ورغم أن بالاديوس سعى إلى تلبية هذا الطلب، إلا أن الصورة التي قدمها لم تكن مثالية تماما، ويبدو أنه كان مدركا لذلك عندما أشار في مقدمته إلي أنه "رغم انشغال كثير من الإخوة بالعمل والإحسان والافتخار بالعزوبية والتبتل، إلا أنهم فشلوا في تحقيق السكون الداخلي".[٨٠] غير أن نتيجة المقارنة بين حالات سقوط شخصيات روايته الرئيسية من الرهبان والنساك الذكور بأقرانهم من النساء –مع الأخذ في الاعتبار أن نسبة الشخصيات النسائية المذكورة في الكتاب لا تشكل سوى حوالي الربع– ليست في صالح الأخيرات، ولا تشي بـ "توازن" رواية بالاديوس كما ذهب هارمليس. ففي الوقت الذي لم يتناول سوى حالة واحدة لسقوط راهب في الخطيئة، وهو هارون الذي غادر قلايته إلي الإسكندرية، حيث التقى بممثلة وسقط معها،[٨١] خصص فصلين كاملين لشخصيتي "العذراء التي سقطت"[٨٢] و"الراهبة التي سقطت".[٨٣]

كذلك؛ تشي قصص بالاديوس عن شخصياته النسائية بتأثره الواضح بالأيديولوجية الرهبانية العامة تجاه المرأة، صحيح أن قصصه تتناول أنماط مختلفة لنساء بلغن القداسة، إلا أنها كثيرا ما تقدم نجاحهن في إماتة رغبة الجسد والابتعاد عن طريق الرجال حتى لا يتسببن في سقوطهم كأحد المقومات الرئيسية التي أهلتهن لبلوغ هذه المنزلة. فالراهبة العذراء ألكسندرا Alexandra تركت المدينة وحبست نفسها في قبر لعشرة سنوات خشية "أن تتعثر نفس بسببها".[٨٤] كذلك؛ لم تحتمل إحدى راهبات دير طبانيس إتهامها بالسقوط –مع رجل كانت قد قابلته مصادفة خارج الدير– وفضلت أن تنتحر بإلقاء نفسها في النهر.[٨٥] وثمة راهبة أخرى بأحد أديرة أنتينوي ، تُدعى تاؤر Taor، أحجمت عن مرافقة أقرانها إلي الكنيسة آيام الآحاد خشية أن يُفتتن أحد بجمالها.[٨٦]

ولعل أفضل خاتمة عن صورة "القديسات" في مؤلف بالاديوس هي رؤيته هو نفسه عن كيفية بلوغ هؤلاء النساء هذه المنزلة، ففي مقدمة فصله الحادي والأربعين، تحت عنوان "نساء قديسات"، راح يقول: "من الضروري أيضا أن أذكر في كتابي هذا بعض النسوة اللواتي تمتعن بعزيمة رجولية، وأعطاهن الله نصيبا في الجهاد معادلا للرجال، كي لا يزعم أحد أن النساء أضعف من أن يمارسن الفضيلة بكمال. فقد رأيت كثيرات مثل هؤلاء، وقابلت عذارى وأرامل متميزات".[٨٧] والمدقق في هذه المقولة يلاحظ أن بالاديوس رغم انتقاده لمن يزعمون بأن "النساء أضعف من أن يمارسن الفضيلة بكمال" –ولعله يعبر هنا عن الرؤية الرهبانية الذكورية للنساء–، إلا أنه فيما يبدو ظل متأثرا بذات الرؤية عندما أعلن أن قديساته لم يبلغن منزلتهن إلا بتمتعهن "بعزيمة رجولية"، أو بعبارة أخرى لأنهن تغلبن على طبيعتهن الأنثوية واكتسبن صفات ذكورية.

وذات المفهوم الذي عبر عنه بالاديوس نصادفه أيضا في بعض الكتابات الهجيوجرافية التي تناولت سير قديسات من القرنين الرابع والخامس الميلاديين،

صرن ذكورا بحياتهن وسلوكهن النسكي".[١٠٠] وفي ذات الاتجاه ترى سوسانا إيلم أن مثل هذه الأقوال تعكس بلوغ درجة فريدة من السمو الروحي، فـ "بالنسبة للناسك المثالي تختفي مسألة كونه ذكر أم أنثى، لأنه أو أنها تتسامى فوق الحدود التى صاغها الجسد، فالتنسك تعنى انتفاء التمييز الجسدي".[١٠١]

وآيا كانت رؤية براكي وإيلم للنموذج النسكي الذي أهلَّ هؤلاء الناسكات لبلوغ درجة الإنتفاء الجسدي أو التحول إلي الذكورة، فما يهمنا هنا في المقام الأول هو تأثرهن الواضح بالأيديولوجية الرهبانية المحيطة بهن. فلجوئهن إلي التخفي في هيئة الرجال لم يكن فقط لمجرد وقاية أنفسهن من الاعتداء الجسدي من قبل لصوص الصحراء أو لأن عددا من الرهبان الذكور لم يتقبلوهن كإناث –كما يذهب جيليان كلوك–،[١٠٢] بل لكونهن –وهذا الأهم في رأيي– سعين إلي التعاطي مع ثقافة ذكورية اعتبرت الصحراء منطقة نفوذ للنساك والرهبان الذكور، ثقافة رأت في القداسة منزلة لا ينالها إلا الذكور أولاً، ثم من يستطيع أن يُضفي على نفسه هيئة وفكرا ذكوريا ثانياً.[١٠٣] كما أن نصوص الأدب الرهباني لا تشي بما تذهب إليه سوسانا إيلم من "إنتفاء التمييز الجسدي مع مثالية النسك"، فأقوال الأم سارة ذاتها تلمح إلي موقف دفاعي ضد الآخر، وتشي أيضا بأنها رغم ما بلغت في حياتها الروحية كانت موضع اختبار من إثنين من الآباء الذكور، اللذان نظرا إليها –كما جاء في النص– كـ "مجرد إمرأة".[١٠٤] ومن ثم يمكن مناقشة رأى إيلم في سياق الاختلاف بين ما هو نموذج مأمول وما هو كائن بالفعل، وبديلاً عن فكرة "إنتفاء التمييز الجسدي" هذه، يمكن القول ببساطة بأن الرسالة التي أرادت هذه "الأقوال" إبلاغها، للراهبات والناسكات قبل غيرهن، أنهن إذا رغبن في كمال الحياة النسكية والقداسة فعليهن التخلي عن ضعفهن الأنثوي والتحلي بالقوة الذكورية، أو كما عبرت الأم سارة "إمرأة بالطبيعة" و"رجل بالفكر". وهذا الوجوب ليس خاصا بالنساء وحدهن،بل كان

على النساك والرهبان الذكور أيضا ألا يستطيعوا تمييز الاختلاف بين الرجال والنساء، فثمة قصة لناسكة عنفت راهباً ذكراً-عاد عن طريقه عندما إلتقى بها وراهباتها مصادفة- بقولها : "لو كنت راهباً حقيقياً ما كنت رأيتنا كنساء".[١٠٥] وهذا النموذج المأمول عبر عنه بالاديوس بوضوح في حديثه عن سيسينيوس Sisinius الذي ترأس جماعة من الراهبات، واستطاع "بعفة سلوكه التحكم في رغباته الطبيعية كرجل، وهدأ بضبطه لذاته الطبيعة الأنثوية التي للنساء، حتى تمت فيه كلمات الكتاب المقدس[١٠٦]: في المسيح، لا ذكر ولا أنثى".[١٠٧]

وإذا كان الأدب الرهباني قد امتدح الراهبة التي تبلغ درجة مثلى في نمط حياتها الديرية، أو تثبت قوة وصلابة في الحرب مع "شيطان الشهوة"، وعزا ذلك كله إلي تخليها عن "الضعف الأنثوي" وتبنيها "صفات ذكورية"، فإنه من ناحية أخرى وظف أيديولجيته العامة تجاه المرأة وتأثيرها الواضح على الراهبات أنفسهن للتأكيد على الاختلاف بين الذكر والأنثى، ومن ثم حاجة الأنثى الدائمة إلى الإشراف والرعاية الروحية الذكورية. فقد راح شنودة الإتريبي Shenoute يدافع عن زعامته وإرشاده لدير الراهبات الملحق بديره بتذكيرهن بـــ "سهولة انقياد النساء للشيطان بسبب طبيعتهن الأقل تعقلا والأكثر جنوحا للشهوة"، وراح يصف الراهبات اللاتى لا يخضعن أنفسهن لإرشاد الرجال بكونهن "يمضين أوقاتهن في أخذ المشورة من الشيطان"، كما راح يخبر الراهبات المتمردات بأن قلوبهن وأجسادهن "مخادع للأرواح النجسة".[١٠٨] وعبر ويصا Besa، خلف شنودة في رئاسة الدير الأبيض، عن ذات المفاهيم في خطابه إلي الراهبة هيراي Herai-التى أصرت على مغادرة الدير والحصول على متعلقاتها رغم رفضه- حين راح يصفها بـــ "إبنة بابل Babylon التي تمارس الخطيئة مع الشياطين، والتى سينكشف أمرها للأخرين يوما ما".[١٠٩]

وعلى ذلك؛ يمكن القول بأن الرهبانية نشأت ظاهرة ذكورية ومجال نفوذ للرجال وكان لزاما –من وجهة نظر قادتها– أن تظل كذلك. وما ساد الأدب الرهباني "الذكوري" من صورة سلبية عن المرأة بوصفها أداة لشيطان الشهوة في حربه ضد هذا العالم الذكوري، يعكس محاولة هدفت في المقام الأول إلي إقامة حد فاصل بين هذا العالم وعالم "النساء"، أو بمعنى أخر الحفاظ عليه والاحتفاظ به مجال نفوذ ذكوري فقط. ولأن ضرورات الواقع لم تتح استمرار المأمول وفرضت اقتحام المرأة لهذا العالم وظهور الرهبانية النسائية –الذي كان في حد ذاته استجابة لحاجة ذكورية–، فقد كان على الوافدون الجدد على هذا العالم من الناسكات والراهبات أن يلتزمن بأفكاره ومضامينه الذكورية. فالانخراط وسط عالم يسوده ويسيطر عليه نساك ورهبان فرض عليهن قيما متناقضة؛ ففي الوقت الذي كان عليهن التعاطي مع أيديولوجته العامة بالتخلي عن طبيعتهن الأنثوية واكتساب صفات ذكورية، وجب عليهن أيضا ألا يتناسين طبيعتهن الأنثوية الضعيفة التي تحتاج دوما إلي إرشاد وإشراف الذكور.

* *

الهوامش :

١Brown, P. *The Body and Society: Men, Women and Sexual Renunciation in Early Christianity*, New York, ١٩٨٨, p.٢٤٣.

٢DeConick, A.D., *Holy Misogyny: Whey the Sex and Gender Conflicts in the Early Church still Matter*, New York, London, ٢٠١١.

٣Clark, E. A., "Holy Women, Holy Words: Early Christian Women, Social History, and the 'Linguistic Turn' ", *Journal of Early Christian Studies* ٦/٣(١٩٩٨), pp.٤١٣-٤٣٠; Brakke, D., "The Lady Appears: Materialization of 'Woman' in Early Monastic Literature", *Journal of Medieval and Early Modern Studies* ٣٣/٣ (fall ٢٠٠٣), pp.٣٨٧-٤٠٢, esp. ٣٨٧; Harmless, W.S.J., *Desert Christians: An Introduction to Early Monastic Literature*, New York, ٢٠٠٤, p.٤٤٠.

٤Harmless, *Desert Christians*, p.٢٨٤.

ذات الأمر اعترفت به أبريل ديكونيك فيما يتعلق بصورة المرأة في كتابات آباء الكنيسة الأوائل، إذ تقول:"إن قصة النساء والكنيسة المبكرة قصة تستعصي على الفهم، خاصة وأن المصادر القديمة تعوق رؤيتنا لهذه القصة أكثر من أن تسهلها. لقد صار من المسلم به القول بأن قصة النساء في المسيحية المبكرة قصة معقدة". DeConick, A.D., *Holy Misogyny*, p.١٤٧.

٥Krawiec, R., *Shenoute and the Women of the White Monastery*, New York, ٢٠٠٢, p.١٢٢.

٦Clark, E.A., "The Lady Vanishes: Dilemmas of a Feminist Historian after the 'Linguistic Turn' ", *Church History* ٦٧ (١٩٩٨), pp.١-٣١; Idem, "Women, Gender and the Study of Christian History", *Church History* ٧٠ (٢٠٠١), pp.٣٩٥-٤٢٦.

٧ عن مفهوم هذه الحرب، أنظر:

Brakke, D., *Demons and the making of the Monk: Spiritual Combat in Early Christianity*, Cambridge, ٢٠٠٦; Vos, N., "Demons and the Devil in Ancient and Medieval Christianity: Introduction, Summary, Reflection", in: *Demons and the Devil in Ancient and Medieval Christianity*, ed. N. Vos & W. Otten, Leiden, Boston, ٢٠١١, pp.٣-٣٦; Kuznetsova, A., " 'A Wall of Bronze' or Demons Versus Saints: Whose Victory?", in: *Christian Demonology and*

٢٣esp. pp.٦٢-٦٣. لم يشر إفاجريوس إلي اتخاذ أية هيئة بشرية باستثناء الهيئة الأنثوية.
Evagrius, "Eulogios", p.٤٥

٢٣Evagrius, "On the Eight Thoughts", in: *Evagrius of Pontus. The Greek Ascetic Corpus*, trans. R. E. Sinkewicz, Oxford, ٢٠٠٦, pp.٦٦-٩٠, esp. p.٧٦.

.٢٤Evagrius, "Eight Thoughts", pp.٧٦-٧٧.

من الملاحظ هنا أن إفاجريوس جعل شيطان الشهوة أكثر أعوان الشيطان خطورة، إذ يقول: "بالملاحظة ستكتشف شيطانين يتسمان على وجه الخصوص بالسرعة والقدرة على السيطرة على عقولنا؛ شيطان الشهوة والشيطان الذي يقودنا إلي التجديف ضد الرب. إلا أن الأخير قصير الحياة". Evagrius, "Praktikos", p.١٠٦ .

٢٥Evagrius, "Eight Thoughts", p.٧٧.

٢٦Evagrius, "Eight Thoughts", p.٧٦.

٢٧Brown, *Body and Society*, pp.٢٤٢-٢٤٤.

٢٨*The Sayings*(SC), pp.٥٧-٥٨.

(أقوال الآباء، ص ٦٧-٦٨)؛ *The Sayings of the Desert Fathers: The Alphabetical Collection*, trans. B. Ward, Kalamazoo, Oxford, ١٩٧٥, p.١٤.. وهناك قصص أخرى لرفض نساك مقابلة النساء، منها ما رُوي عن يوحنا، المترهبن في دير صحراوي على منحدر جبل بالقرب من ليكيا Lycia (أسيوط حاليا)، الذي رفض رجاء نبيل بإحضار زوجته المريضة إليه قائلا: "ليس لرجل الرب استقبال النساء". روفينوس، تاريخ الرهبان، ص٢٠٠؛ St. Jerome, *Histories of Monks*, p.٣٢٠.

٢٩الأبوفثجماتا باتروم: كلمة مركبة من كلمتين: أبوفثجماتا ἀποφθέγματα اليونانية وتعنى "أقوال مأثورة" وباتروم *Patrum* اللاتينية وتعنى "آباء"، وبالتالي فهي تعنى "أقوال الآباء". وتُعد الوثيقة الأولى لسائر الأدب الرهباني، وقد جُمعت أولا شفهيا ثم دُونت. وهناك مجموعتان لهذه الأقوال ١. المجموعة الألفبائية Alphabetical collection والمرتبة وفقا لأسم الراهب أو الناسك مع تسلسل رقمي لأقوال كلّ شخصية؛ ٢.المجموعة المرتبة وفق الموضوع Systematic collection، وهي على هيئة فصول مع تسلسل رقمي للأقوال من بدايتها إلي نهايتها. وقد اعتمد البحث على كلا المجموعتين، وللتمييز بينهما سيرد مختصر المجموعة الألفبائية على مدار البحث بصيغة: *The Sayings* (AC)، بينما المجموعة الموضوعية بالصيغة *The Sayings* (SC)، علما بأن الترجمة العربية المستخدمة عبر البحث هي الخاصة بالمجموعة الأخيرة.

٣٠*The Sayings* (SC), p.٦٣.

(أقوال الآباء، ص٧٤).

٣١ *The Sayings* (SC), p.١٢٨.

(أقوال الآباء، ص١٥٢)؛ *The Sayings* (AC), p.٥١.

٣٢ *The Sayings* (SC), p.١٣٢.

(أقوال الآباء، ص١٣٢).

٣٣ *The Sayings* (AC), p.٢٢٥.

٣٤ *The Sayings* (AC), p.٧٦.

٣٥ *The Sayings* (SC), p.٨٤.

(أقوال الآباء، ص٩٨)؛ *The Sayings* (AC), p.٢١٣

٣٦ St. Jerome (St. Hieronymus), *The Histories of the Monks who lived in the Desert of Egypt*, in: *The Paradise of the Holy Fathers*, vol. ٢, trans. E.A.W. Budge, London, ١٩٠٧, p.٣٢٧. وأنظر أيضا: كتاب هيستوريا موناخورُم "تاريخ الرهبان في مصر (الرهبان السبعة)"، ضمن كتاب التاريخ الرهباني في أواخر القرن الرابع الميلادي، ترجمة الأب ساويرس البراموسي، مركز باناريون للتراث الآبائي، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٩١.

٣٧ يذكر روفينوس أن الأنبا ديسقوروس كان يحذر الرهبان "حتى من الأشياء التي يتعرضون لها أثناء النوم، إما بسبب خيالات النساء، وإما بسبب الفيض الطبيعي للسائل الجسدي. وقال: إذا حدثت مثل هذه الأشياء دون أن يصاحبها خيالات النساء، فليست خطية، بل هو فيض طبيعي. ولكن متى كان مصحوبا بخيالات النساء وملذات الجسد، فهذا علامة أكيدة على أن هناك رغبة في نفوسهم على التمتع بهذه الأفكار الدنسة". روفينوس، تاريخ الرهبان"، ص٢٧٧. كذلك؛ جاء في "تواريخ الرهبان" للقديس جيروم، وفي "أقوال الآباء" أن ذات الأنبا كان يحذر الراهب قبل تقدمه لطقس التناول: "تذكر جيدا إن كنت قد سقطت في فخ شيطاني، بحلم شهواني أثناء الليل، فتدنس المسيح". *The Sayings* (SC), p.٢٢٧. (أقوال الآباء، ص٢٦٤)؛ St. Jerome, *Histories of Monks*, pp.٣٦٣-٣٦٤.

٣٨ *The Sayings* (SC), pp.٢٣٤-٢٣٥.

(أقوال الآباء، ص٢٧١).

٣٩ *The Sayings* (SC), p.١٢٩.

(أقوال الآباء، ص١٥٣-١٥٤).

٤٠ *The Sayings* (SC), p.٨٨.

(أقوال الآباء، ص١٠٣).

٤١ *The Sayings* (SC), p.٢١٩.

(أقوال الآباء، ص ٢٥٦.. والترجمة هنا خاطئة تماما بسبب تدخل المترجم، حيث جاءت كالتالي: "لم يسمح لى بالإقامة هناك، بسبب شدة حرب العدو"). كذلك من الملاحظ أن هذه المجموعة ذكرت الأنبا آمون بدلا من يوديمون. *The Sayings* (AC), p.٦٤.

٤٢ثمة فصول عديدة حملت هذا العنوان في أعمال إيفاجريوس، أنظر: Evagrius, "Eulogios", ch.١٨. pp.٤٥-٤٦; ch.٢١. pp.٤٨-٤٩; "Vices", ch.٢. pp.٦٢-٦٣; "Eight Thoughts", ch.٢. pp.٧٦-٧٨; "Praktikos", ch٢. p.٩٨; "On Thoughts", in: *Evagrius of Pontus. The Greek Ascetic Corpus*, trans. R. E. Sinkewicz, Oxford, ٢٠٠٦, pp.١٣٦-١٨٢, esp. ch.١٦. pp.١٦٣-١٦٤. كما خصصت مجموعة "أقوال الآباء" فصلا مطولا حمل ذات العنوان ألحق به ما سُمي "نصائح ممتازة لأحد الآباء الطاعنين في السن بشأن الزنا، أنظر: *The Sayings* (SC), ch.١١. pp.١٢٦-١٣٦. (أقوال الآباء، ص١٥٠-١٦٣). هذا فضلا عن ورود الحديث عن الشهوة في سياق الحديث عن أمور أخرى كثيرة.

٤٣ *The Sayings* (SC), pp.١٢٦-١٢٧.

(أقوال الآباء، ص١٥١)؛بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٣٨٩-٣٩٠.

٤٤بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٣٦٤.

٤٥بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٤٠٥.

٤٦ بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٤٤٣.

٤٧"وإذ وجدت الباب مفتوحا انسلت داخله إلي المغارة، وألقت بنفسها على ركبتي الرجل وتوسلت إليه أن يأويها؛ ولأن الظلمة قد أدركتها، فقد أشفق عليها... فقبلها ضيفة في مغارته. وأكثر من ذلك، سألها عن رحلتها، فأخبرته كيف ضلت طريقها، وبذرت فيه كلمات الإطراء والغواية، واستمرت في الحديث معه لبعض الوقت، وجذبته على نحو ما برفق إلي السقوط في حبها، ثم صار الكلام أكثر تحررا، وتحول إلي ضحك ومرح صاخب... وبمثل هذا الكلام الكثير أضلته، ثم بدأت تلمس يده ولحيته ورقبته. وأخيرا جعلت الناسك أسيرا لها. واهتاج ذهنه بأفكار شريرة... وفي النهاية أراد أن يجامعها جنسيا". St. Jerome, *Histories of Monks*, pp.٣٢٦-٣٢٧؛ هيستوريا موناخورُم (الرهبان السبعة)، ص٩٠. ويستطيع القارئ بسهولة أن يلحظ مدى التطابق بين هذه القصة وما ذُكر قبلا من نصائح وتحذيرات إيفاجريوس من المرأة.

٤٨يسجل كل من القديس جيروم وكتاب "تاريخ الرهبان (الرهبان السبعة)" قصة ناسك ظل لسنوات طويلة يقدم نموذجا عاليا في التعبد وحياة النسك، إلي أن هاجمه الشيطان بوحشية "في حين امتلأت الذاكرة بصور إمرأة شبه حاضرة معه"، وبسيطرة هذه الأفكار عليه اندفع

نحو العالم. St. Jerome, *Histories of Monks*, p.٣٣١؛ هيستوريا موناخورُم (الرهبان السبعة)، ص٩٥-٩٦. ويروي لنا روفينوس قصة مماثلة عن ناسك "مملوء من كل الفضائل يعيش في مغارة، أضلّه الشيطان بشكل إمرأة، فصار منزعجا جدا لدرجة أنه عاد إلي العالم وتجنب شركة القديسين، ولم يكن هناك شخص استطاع إسداءه مشورة مفيدة قد ترده عن مثل هذه الكارثة". روفينوس، تاريخ الرهبان، ص٢٠٨. وتكتظ "أقوال الآباء" بقصص رهبان دفعتهم معاناة حرب الشهوة إلي التفكير في العالم أو العودة إليه فعلا، منها قصة رجل اصطحب ابنه طفلا إلي دير وادى النطرون، ولما كبر الطفل وصار شابا بدأت حرب الشهوة تهاجمه لدرجه أنه قرر العودة إلى العالم الدنيوى، ورغم محاولات أبيه المتكررة لمساعدته على الصمود، إلا أن الشاب لم يقوى، فنصحه الأب بالذهاب إلي الصحراء أربعين يوما، وفيها إذا بشيطان الشهوة يقترب منه في هيئة فتاة سوداء، ذات رائحة كريهة لم يستطع احتمالها، فطردها، فقالت له: "إن لى رائحة جميلة في قلوب الناس، إلا أن طاعتك وعملت جعلت الرب يكشف لك عن رائحتى الحقيقية". *The Sayings* (SC), pp.١٣٠-١٣١. (أقوال الآباء، ص١٥٦) وعن أحد آباء الصحراء أغواه الشيطان بالعودة إلي زوجته و"العالم". *The Sayings* (SC), p.١٥٨ (أقوال الآباء، ص١٨٩). وعن قصة تلميذ أحد الآباء دفعته حرب شيطان الشهوة إلي العودة إلي العالم والزواج، ومن شدة حزن معلمه عليه أن صلى من أجل موته قبل أن يفقد عفته، "فلما أغلقوا عليه مع عروسه في حجره نومه، أسلم الروح قبل أن يقترب منها". *The Sayings* (SC), p.٢١٧. (أقوال الآباء، ص٢٥٤).

٤٩في هذا السياق يرى إيفاجريوس أنه حتىالرهبان ذو الخبرة والتجربة يجدون صعوبة بالغة في مقاومة شيطان الشهوة، ولذلكراح يقدمعددا من عبارات الكتاب المقدس لمساعدة الرهبان الذين صاروا في خطر فقدان الأمل في امكانية تغلبهم على هذا الشيطان..والواقع أن سلسلة النصائح التي نصح بها والتجارب التى رواها تشي بأن معركة الراهب مع شيطان الشهوة شاقة وطويلة.

Evagrius, "Eight Thoughts", pp.٧٦-٧٨.

٥٠*The Sayings* (SC), pp.٨٩-٩٠.

(أقوال الآباء، ص١٠٥).

٥١*The Sayings* (SC), p.٨٩.

(أقوال الآباء، ص١٠٤).وهناك راهب ثالث اعترف لأحد الآباء بارتكابه الخطيئة دون تحديد كيفية حدوث ذلك. *The Sayings* (SC), p.٩٠(أقوال الآباء، ص١٠٦). وعن قصة راهب آخر أتهم

بالسقوط في الزنا وأقتيد إلي الأنبا أنطونيوس، أنظر: *The Sayings* (SC), p.٩٣. (أقوال الآباء، ص١٠٩).

٥٢*The Sayings* (SC), p.١٥٥.

(أقوال الآباء، ص١٨٦).

٥٣Krawiec, *Shenoute*, p.١٢٣.

٥٤بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٤٠٤؛ *The Sayings* (SC), p.٨٤ (أقوال الآباء، ص٩٨)؛ *The Sayings* (AC), p.٢١٣.

٥٥Brakke, "The Lady Appears", p.٣٨٧.

٥٦Elm, S., *'Virgins of Gods": The Making of Asceticism in Late Antiquity*, Oxford, ١٩٩٤, pp.٢٧١-٢٧٢.

٥٧هيراكليوس ماجنا هي أهناسيا المدينة بالقرب من الفيوم.

٥٨روفينوس، تاريخ الرهبان، ص٢٦٥؛ St. Jerome, *Histories of Monks*, p.٣٥٩.

٥٩*The Sayings* (SC), p.١٤١.

(أقوال الآباء، ص١٧٠).

٦٠*The Sayings* (SC), p.١٥١.

(أقوال الآباء، ص١٨١)؛ *The Sayings* (AC), pp.١٧٧-١٧٨.

٦١يزخر الأدب الرهباني بقصص عديدة عن حيل الشيطان لإرسال نساء من العالم إلي الصحراء لغواية الرهبان. فوفقا لـ "أقوال الآباء" أراد الأنباء مكاريوس أن يعطي درسا للرهبان عن حيل الشيطان، فقص لهم قصة شاب به روح نجسة جاء إلي الصحراء مع أمه، وتركها هناك لمحاربة الرهبان. *The Sayings* (SC), pp.١٦٦-١٦٧. (أقوال الآباء، ص١٩٩-٢٠٠).

٦٢تشير القصة إلي أن الراهب أقنعه بالعدول عن رغبته في العودة إلي العالم ونصحه بالتوبة قائلا: "كلا يا أبتي! بل امكث في مكانك، واطرد المرأة، فما حدث لك ما هو إلا تجربة من عدو الخير". *The Sayings* (SC), p.١٧٨. (أقوال الآباء، ص٢١٤-٢١٥).

٦٣*The Sayings* (SC), pp.١٣٨-١٣٩.

(أقوال الآباء، ص١٦٦-١٦٧). وتنتهي قصة هذا الناسك أيضا بتوبته على يد أحد النساك "بأن أعلن له أن الرب قد قبل توبة الزانية". كذلك؛ ثمة قصص لرهبان تم اكتشاف استضافتهم لنساء من "العالم" داخل قلاياتهم. *The Sayings* (SC), p.٩٢. (أقوال الآباء، ص١٠٨).

٦٤في إحدى قصص "أقوال الآباء" راح أعوان الشيطان يعددون أمامه ما أحدثوه من تدمير لحياة "العالم" من إثارة للحروب والثورات وسفك للدماء في أيام معدودات، ومن بينهم جميعا اختار

الشيطان أحدهم ليتوجه بتاجه ويجلسه بجواره لكونه نجح في جر راهب بالصحراء إلي الخطيئة بعد أن ظل يصارعه أربعين عاما. وقال له: "أعظم ما أقدره هو سقطة راهب". *The Sayings* (SC), pp.١٤٦-١٤٧. (أقوال الآباء، ص٢١٤-٢١٥).

٦٥من بين "أقوال الآباء" مقولة الأنبا مكاريوس "جاهد للتغلب على رغبات الجسد فتقودك إلي الموت عن العالم". *The Sayings* (SC), p.١٩٢. (أقوال الآباء، ص٢٢٩).

٦٦عن مثل هذه القصص أنظر حاشية ٤٨ من البحث.

٦٧*The Sayings* (SC), p.١٩٠.

(أقوال الآباء، ص٢٢٧).

٦٨*The Sayings* (SC), p.١٩٩.

(أقوال الآباء، ص٢٣٦).

٦٩ورد في "أقوال الآباء" حالة واحدة من هذا النموذج. Palladius, *The Sayings*, p.١٤٩. (أقوال الآباء، ص١٧٩). وثمة حالة أخرى ذكرها بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٣٥٧-٣٥٨.

٧٠*The Sayings* (SC), p.١٥٠-١٥١.

(أقوال الآباء، ص١٨٠-١٨١).

٧١*The Sayings* (SC), p.٢٠٠.

(أقوال الآباء، ص٢٣٧).

٧٢*The Sayings* (SC), pp.٢٥٨-٢٥٩.

(أقوال الآباء، ص٢٩٤-٢٩٥).

٧٣بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٣٤٦.

٧٤بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٤٨٢-٤٨٣.

٧٥ بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٣٧٦.

٧٦يقدم الأدب الرهباني أيضا نموذج الزوجة الساقطة، التي تسببت خيانتها في دفع زوجها إلي ترك العالم والانخراط في الحياة النسكية في الصحراء، كزوجة بولس البسيط تلميذ الأنبا أنطونيوس، الذي فضل أن "يعيش مع العقارب، ولا يعيش مع إمرأة ساقطة". هيستوريا موناخورُم، ص١٧٠؛ بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٣٩٩، ٤٠١.

٧٧Harmless, *Desert Christians*, pp.٤٤٤،٢٨٤.

٧٨كان لاوسوس كبير أمناء القصر وحاجبا للإمبراطور ثيودوسيوس الثاني.

٧٩بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٣٣٥.

٨٠بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٣٣٧.

٨١بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٤٠٩-٤١٠. وكما يروي بالاديوس، "كانت العاقبة أن أُصيب بتعفن في أعضائه" وعندما شُفي تاب وعاد إلي حياته الروحية ثانية.

٨٢يذكر بالاديوس أنها راهبة عذراء ظلت في قلايتها ست سنوات، لكنها في النهاية سقطت، حيث أدخلت إليها الرجل الذي كان يخدمها وعانقته، لأنها "كانت تمارس النسك ليس عن دافع روحي، ولا عن محبة لله، ولكن عن حب الظهور البشري". بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٤١٢.

٨٣يروى بالاديوس أنها راهبة عذراء تنسكت لتسع أو عشر سنوات، ثم أغواها ممثل فسقطت وولدت طفلا، إلا أنها تابت وقُبلت توبتها. بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٤٨٨-٤٨٩.

٨٤بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٣٤٩-٣٥٠.

٨٥بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٤٢٢-٤٢٣.

٨٦بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٤٧٧. ويقول عنها بالاديوس: "كان جمالها فائقا، حتى أن أكثر المتصلبين يُفتتون به، إلا أن عفتها الفائقة للوصف كانت لها حارسا". ويمكن هنا اقتباس عبارة ريبيكا كراويس المتطابقة تماما مع رؤية بلاديوس لهذه الشخصيات تحديدا، إذ تقول: "لقد سعت هذه النساء إلي العزلة كمبادرة منهن ولم تُفرض عليهن. كذلك، غالبا ما سعين ليس فقط إلى حماية أنفسهن من رغبتهن الجسدية، بل أيضا من الرؤية الذكورية (كما عكست المصادر الذكورية) التي جعلت إغوائهن مصدر خطر على الرجال. لقد تحملت النساء مسئولية كل من كبح رغباتهن الجسدية،وكذلك عزل أنفسهن كي لا يغوين الرجال". Krawiec, *Shenoute*, p.١٢٣.

٨٧بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٤٤٨.

٨٨The Life of St. Mary of Egypt, trans. M. Kouli, in: *Holy Women of Byzantium: Ten saints' Lives in English Translation*, ed. A-M. Talbot, Washington DC., ١٩٩٦, pp.٦٥-٩٤; Coon, L.L., *Sacred Fiction: Holy Women and Hagiography in Late Antiquity*, Philadelphia, ١٩٩٧, pp.٨٤-٩٤; Burrus, V., *The Sex Lives of Saints: An Erotics of Ancient Hagiography*, Philadelphia, ٢٠٠٤, pp.١٤٧-١٥٤.

٨٩ عن سيرة بلاجيا الأنطاكية، أنظر: The Life of St. Pelagia of Antioch, in: *Holy Women of the Syrian Orient*, trans. S. Brock & S.A. Harvey(Berkeley, Los Angeles, ١٩٩٨, pp.٤٠-٦٢; Coon, *Sacred Fiction*, pp.٧٧-٨٤; Burrus, *Sex Lives of Saints*, pp.١٣٧-١٤٦.

٩٠Dunn, M., *The Emergence of Monasticism from the Desert Fathers to the Early Middle Ages*, Oxford, ٢٠٠٣, p.٥٣

٩١Miller, P.C., "Is there a Harlot in This Text? Hagiography and the Grotesque", *Journal of Medieval and Early Modern Studies* ٣٣ (٢٠٠٣), pp.٤١٩-٤٣٥.

٩٢Delcourt, M., "Female Saints in Masculie Clothing", *Hermaphrodite: Myths and Rites of the Bisexual Figure in Classical Antiquity*, trans. J. Nicholson, London, ١٩٦١, pp.٨٤-١٠٢; Anson, J., "The Female Transvestite in Early Monasticism: The Origin and Development of a Motif," *Viator* ٥ (١٩٧٤), pp. ١-٣٢; Patlagean, E., "L' histoire de la femme déguisée en moine et l' évolution de la sainteté à Byzance", *Studi Medievali* ser.٣, ١٧(١٩٧٦), ٥٩٧-٦٢٣, repr. In: idem, *Structure sociale, famille, chrétienté à Byzance, IVe-XIe siècle*, London, ١٩٨١, no. XI;Castelli, C., "I Will Make Mary Male': Pieties of the Body and Gender Transformation of Christian Women in Late Antiquity," in:*Body Guards: TheCultural Politics of Gender Ambiguity*, ed. J. Epstein and K. Straub (New York: Routledge, ١٩٩١), ٢٩-٤٩; Davis, S.J., "Crossed Texts, Crossed Sex: Intertextuality and Gender in Early Chrstian Legends of Holy Women Disguised as Men," *Journal of Early Christian Studies* ١٠ (٢٠٠٢), pp.١-٣٦.

وثمة شاهد على كون هذه الظاهرة تعود إلي فترة مبكرة من ظهور الرهبانية في مصر، وأن الكنيسة اتخذت موقفا كارها ومعارضا لها منذ البداية، فالقانون الثالث عشر من مجمع جانجرا Gangra ببفلاجونيا منتصف القرن الرابع أدان بشدة تخفي الراهبات في زى الرجال. Elm, *Virgin of the God*, pp.١٠٨-١١١; Sterk, A., *Renouncing the World yet Leading the Church: the Monk-Bishop in Late Antiquity*, London, ٢٠٠٤, pp.٢٨-٢٩.

٩٣"Life of St. Mary/Marinos", trans. N. Constas,*Holy Women of Byzantium: Ten saints' Lives in English Translation*, ed. A-M. Talbot, Washington D.C., ١٩٩٦, pp.١-١٢, esp. ٧.

٩٤*The Sayings* (AC), p.٤١.

٩٥هذه القصة غير مذكورة في مجموعتى "أقوال الآباء" المستخدمتين في البحث، وإنما منشورة في *Revue de l'orient chrétien* ١٢ (١٩٠٧): ٣٩٣، وقد اعتمد الباحث على ترجمة براكي لها في بحثه: Brakke, "The Lady Appears", p.٣٨٧.

٩٦Brakke, 'The Lady Appears", p.٣٨٩.

٩٧*The Sayings* (SC), p.١٢٧.

(أقوال الآباء، ص١٥٢)؛ *The Sayings* (AC), p.٢٢٩.

٩٨*The Sayings* (AC), p.٢٣٠.

٩٩*The Sayings* (SC), p.٢٥٧.

من الملاحظ أن ثمة خطأ في الترجمة العربية، حيث جاءت المقولة كالتالي: "أصبحت نظرتي لنفسي كأننى رجل"، أنظر: أقوال الآباء، ص٢٩٢؛ *The Sayings* (AC), p.٢٣٠.

١٠٠Brakke, 'The Lady Appears", p.٣٩٠.

١٠١Elm, *Virgins of God*, p.٢٦٧.

١٠٢Cloke, G., *"This Female Man of God": Women and Spiritual Power in the Patristic Age, A.D. ٣٥٠-٤٥٠*, London, ١٩٩٥, p.١٩٦; Brakke, 'The Lady Appears", p.٣٨٨.

واستكمالا لهذا الرأي؛ يتجه كل من ريبيكا وكلوك – إلي هذا العداء الصريح من قبل الرهبان الذكور جعل "نساء الصحراء –اللاتى لا يخفين أجسادهن الأنثوية عن أنظار الذكورأو لا يرتدين ملابس ذكورية– عرضة للشبهة والاختبار القاسي". Cloke, *Female Man*, pp.١٩٧-١٩٨; Krawiec, *Shenoute*, p.١٢٣.

١٠٣تذكركراويس أن أولئك الناسكات "اخترن الذهاب للصحراء كمكان يتحررن فيه من حدود وقيود النوع، أو الصفات المقترنة بالاختلاف الجسدي. حيث غرست فيهن الأيديولوجية الثقافية عن النوع مفهوم السعى نحو العيش كرجال. فقد كان أباء الصحراء نافرين من الاتصال بالنساء، أو الاعتراف بقدرتهن على ان يصبحن راهبات. ومن ثم سعت النساء إلي التحرر من نوعهن ومضامينه السلبية". Krawiec, *Shenoute*, p.١٢٣.

١٠٤بل أن براكي وكلوك يعتبران هذه المقولات شاهدا على وجود عدد من الرهبان لم يتقبلوا أقرانهم من الإناث، وكانوا أعداءً صريحين لهن. Cloke, *Female Man* , pp.١٩٦-١٩٧; Brakke, 'The Lady Appears', p.٣٨٨.

١٠٥*The Sayings* (SC), p.١٦٢.

(أقوال الآباء، ص١٩٥).

١٠٦الرسالة إلي مؤمني غلاطية ٣: ٢٨.

١٠٧بالاديوس، التاريخ اللاوسي، ص٤١١.

١٠٨Krawiec, *Shenoute*, p.١١٠-١١١; Brakke, *Demons*, p.١٩٦.

١٠٩Behlmer, H., "The City as Metaphor in the Works of Two Panopolitans: Shenoute and Besa," in A. Egberts, B. P. Muhs, and J. van der Vliet, eds., *Perspectiveson Panopolis: An Egyptian Town from Alexander the Great to the Arab Conquest; Acts of an International Symposium Held in Leiden on ١٦-١٨ December ١٩٩٨* (Leiden, ٢٠٠٢), ١٣–٢٧, esp. ٢٥.

* *

قائمة المصادر والمراجع

أولا. المصادر المعربة:-

الكتاب المقدس

- "**أقوال الآباء وتأملاتهم الروحية**"، ضمن كتاب بستان القديسين، ترجمة ميخائيل مكسي إسكندر، مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٩٩م.
- **بالاديوس**، التاريخ اللاوسي، ضمن كتاب التاريخ الرهباني في أواخر القرن الرابع الميلادي، ترجمة الأب ساويرس البراموسي، مركز باناريون للتراث الآبائي، القاهرة، ٢٠١٣م.
- **روفينوس الأكويلّي**، هستوريا موناخورُم "تاريخ الرهبان"،ضمن كتاب التاريخ الرهباني في أواخر القرن الرابع الميلادي، ترجمة الأب ساويرس البراموسي، مركز باناريون للتراث الآبائي، القاهرة، ٢٠١٣م.
- **هيستوريا موناخورُم** "تاريخ الرهبان في مصر(الرهبان السبعة)"، ضمن كتاب التاريخ الرهباني في أواخر القرن الرابع الميلادي، ترجمة الأب ساويرس البراموسي، مركز باناريون للتراث الآبائي، القاهرة، ٢٠١٣م

ثانيا. المصادر والمراجع الأجنبية:-

Anson, J., "The Female Transvestite in Early Monasticism: The Origin and Development of a Motif," *Viator* ٥ (١٩٧٤), pp. ١–٣٢.

Athanasius, *Vita Antoni*, in: Athanasius, *Selected Works and Letters* [*Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church*, Vol.٤], trans. P. Schaff & H.Wace, pp.١٨١–٢٢١.

Banks, S.R.,*Blazing Walls, Blazing Brothers: Monks and the Making of the Demon in the Pachomian Koinonia*, Ph. D., The Catholic University of America, Washington, D.C., ٢٠١١.

Behlmer, H., "The City as Metaphor in the Works of Two Panopolitans: Shenoute and Besa," in A. Egberts, B. P. Muhs, and J. van der Vliet, eds., *Perspectiveson Panopolis: An Egyptian Town from Alexander the Great to the Arab Conquest; Acts of an International Symposium Held in Leiden on ١٦–١٨ December ١٩٩٨* (Leiden, ٢٠٠٢), ١٣–٢٧, esp. ٢٥.

Brakke, D., "Ethiopian Demons: Male Sexuality, the Black-Skinned Other, and the Monastic Self", *Journal of the History of Sexuality* ١٠٣/٤ (٢٠٠١), pp.٥٠١–٥٣٥.

Brakke, D., "The Lady Appears: Materialization of 'Woman' in Early Monastic Literature", *Journal of Medieval and Early Modern Studies* ٣٣/٣ (fall ٢٠٠٣), pp.٣٨٧–٤٠٢.

Brakke, D., *Demons and the making of the Monk: Spiritual Combat in Early Christianity*, Cambridge, ٢٠٠٦.

Brown, P., *The Body and Society: Men, Women and Sexual Renunciation in Early Christianity*, New York, ١٩٨٨.

Burrus, V., *The Sex Lives of Saints: An Erotics of Ancient Hagiography*, Philadelphia, ٢٠٠٤.

Castelli, C., "I Will Make Mary Male': Pieties of the Body and Gender Transformation of Christian Women in Late Antiquity," in: *Body Guards: TheCultural Politics of Gender Ambiguity*, ed. J. Epstein and K. Straub (New York: Routledge, ١٩٩١), pp.٢٩–٤٩.

Clark, E.A., "Holy Women, Holy Words: Early Christian Women, Social History, and the 'Linguistic Turn' ", *Journal of Early Christian Studies* ٦/٣(١٩٩٨), pp.٤١٣–٤٣٠.

Clark, E.A., "The Lady Vanishes: Dilemmas of a Feminist Historian after the 'Linguistic Turn' ", *Church History* ٦٧ (١٩٩٨), pp.١–٣١.

Clark, E.A., "Women, Gender and the Study of Christian History", *Church History* ٧٠ (٢٠٠١), pp.٣٩٥–٤٢٦.

Cloke, G., *"This Female Man of God": Women and Spiritual Power in the Patristic Age, A.D. ٣٥٠–٤٥٠*, London, ١٩٩٥.

Coon, L.L.,*Sacred Fiction: Holy Women and Hagiography in Late Antiquity*, Philadelphia, ١٩٩٧.

Davis, S.J., "Crossed Texts, Crossed Sex: Intertextuality and Gender in Early Chrstian Legends of Holy Women Disguised as Men," *Journal of Early Christian Studies* ١٠ (٢٠٠٢), pp.١-٣٦.

DeConick, A.D.,*Holy Misogyny: Whey the Sex and Gender Conflicts in the Early Church still Matter*, New York, London, ٢٠١١.

Delcourt, M., "Female Saints in Masculine Clothing", *Hermaphrodite: Myths and Rites of the Bisexual Figure in Classical Antiquity*, trans. J. Nicholson, London, ١٩٦١, pp.٨٤-١٠٢.

Dunn, M.,*The Emergence of Monasticism from the Desert Fathers to the Early Middle Ages*, Oxford, ٢٠٠٣.

Elm, S.,*'Virgins of Gods": The Making of Asceticism in Late Antiquity*, Oxford, ١٩٩٤.

Evagrius, "To Eulogios. On the Confession of Thoughts and Counsel in their Regard", in: *Evagrius of Pontus. The Greek Ascetic Corpus*, trans. R. E. Sinkewicz, Oxford, ٢٠٠٦, pp.١٢-٥٩.

Evagrius, "To Monks in Monasteries and Communities and Exhortation to a Virgin", in: *Evagrius of Pontus. The Greek Ascetic Corpus*, trans. R. E. Sinkewicz, Oxford, ٢٠٠٦, pp.١١٥-١٣٥.

Evagrius, "Prakitkos. The Monk: A Treatise on the Practical Life", in: *Evagrius of Pontus. The Greek Ascetic Corpus*, trans. R. E. Sinkewicz, Oxford, ٢٠٠٦, pp.٩١-١١٤.

Evagrius, "On the Vices Opposed to the Virtues", in: *Evagrius of Pontus. The Greek Ascetic Corpus*, trans. R. E. Sinkewicz, Oxford, ٢٠٠٦, pp.٦٠-٦٥.

Evagrius, "On the Eight Thoughts", in: *Evagrius of Pontus. The Greek Ascetic Corpus*, trans. R. E. Sinkewicz, Oxford, ٢٠٠٦, pp.٦٦-٩٠.

Evagrius, "On Thoughts", in: *Evagrius of Pontus. The Greek Ascetic Corpus*, trans. R. E. Sinkewicz, Oxford, ٢٠٠٦, pp.١٣٦-١٨٢.

Harmless, W.S.J.,*Desert Christians: An Introduction to Early Monastic Literature*, New York, ٢٠٠٤.

Krawiec, R.,*Shenoute and the Women of the White Monastery*, New York, ٢٠٠٢.

Kuznetsova, A., " 'A Wall of Bronze' or Demons Versus Saints: Whose Victory?", in: *Christian Demonology and Popular Mythology*, ed. Pócs & G. Klaniczay, Budapest, New York, ٢٠٠١, pp.٤٥-٥٣.

Miller, P.C., "Is there a Harlot in This Text? Hagiography and the Grotesque", *Journal of Medieval and Early Modern Studies* ٣٣ (٢٠٠٣), pp.٤١٩-٤٣٥.

Patlagean, E., "L' histoire de la femme déguisée en moine et l' évolution de la sainteté à Byzance", *Studi Medievali* ser.٣, ١٧(١٩٧٦), pp.٥٩٧-٦٢٣. repr. In: idem, *Structure sociale, famille, chrétienté à Byzance, IVe-XIe siècle*, London, ١٩٨١, no. XI.

Sterk, A.,*Renouncing the World yet Leading the Church: the Monk-Bishop in Late Antiquity*, London, ٢٠٠٤.

St. Jerome (St. Hieronymus), *The Histories of the Monks who lived in the Desert of Egypt*, in: *The Paradise of the Holy Fathers*, vol. ٢, trans. E.A.W. Budge, London, ١٩٠٧.

The Life of St. Mary of Egypt, trans. M. Kouli, in: *Holy Women of Byzantium: Ten saints' Lives in English Translation*, ed. A-M. Talbot, Washington D.C., ١٩٩٦, pp.٦٥-٩٤.

Life of St. Mary/Marinos, trans. N. Constas,*Holy Women of Byzantium: Ten saints' Lives in English Translation*, ed. A-M. Talbot, Washington D.C., ١٩٩٦, pp.١-١٢.

The Life of St. Pelagia of Antioch, in: *Holy Women of the Syrian Orient*, trans. S. Brock & S.A. Harvey(Berkeley, Los Angeles, ١٩٩٨, pp.٤٠-٦٢.

The Sayings of the Holy Fathers: The Systematic Collection, in: *The Paradise of the Holy Fathers*, vol. ٢, trans. E.A.W. Budge, London, ١٩٠٧.

The Sayings of the Desert Fathers: The Alphabetical Collection, trans. B. Ward, Kalamazoo, Oxford, ١٩٧٥.

Vos, N., "Demons and the Devil in Ancient and Medieval Christianity: Introduction, Summary, Reflection", in: *Demons and the Devil in Ancient and Medieval Christianity*, ed. N. Vos & W. Otten, Leiden, Boston, ٢٠١١, pp.٣-٣٦.

* * *